اسم الدرس : تفسير سورة إبراهيم (٥) | الآيات [٤٢ : ٥٢]

تصنيف الدرس : مجلس تفسيـر

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، نستكمل بإذن الله -عز وجل- مجالس وقفات مع سورة إبراهيم.

كنا قد توقفنا عند الآية {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}[إبراهيم:٤٢-٤٣]

هنا بدأ اختتام السورة بعد الجزء المقتطع الذي تحدث عن سيدنا إبراهيم وعن دعاء سيدنا إبراهيم الذي يبين مدى هموم الداعية المصلح وهموم أئمة الإصلاح، كيف أنهم يتمنون نشر التوحيد وأنهم يضحون بأغلى ما يملكون لنشر هذا الدين.

وهذا الختام للسورة كلها وليس فقط لهذا المقطع.

قال تعالى:{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} هنا جاءت بنون التوكيد للنهي المؤكد، متى تحتاج أن أقول لك: لا تحسب الله غافلًا عما يعمل الظالمون؟

هل من المعقول أن أحدًا يحسب أن الله غافلًا عما يعمل الظالمون؟! نعم، لكن هذا يحدث عندما ينتشر الظلم بقوة ويستمر لفترات طويلة، ويزداد في الفجور والطغيان فيتبادر إلى النفس البشرية وساوس الشيطان بأن تقول: أين الله؟ لماذا يتركهم؟ كيف يحدث هذا؟

كل هذه التساؤلات لا تدبُ في النفس مع أول بلاء، وإنما بكثرة البلاء، فمثلًا أنت في أول لذعة المرض تصبر وتقول الحمد لله، لكن حينما يطول المرض يأتيك الشيطان.

عندما طال البلاء على سيدنا أيوب بعد ١٨ سنة قال {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}[ص: ٤١]، فالإنسان عجول يعجل بالشفاء، ويعجل بالتمكين فلا يصبر على البلاء إلاّ من رحم ربي، لكنّ الله تعالى قال عن أيوب: {إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}[ص: ٤٤] .

فهنا في هذه السورة وأنت تقرأ في السورة مدى طغيان أهل الباطل و كيف أنهم وصلوا لمرحلة أنهم يضعون أيديهم على أفواه الرُسل ويقولون: "لا نريد أن نسمع"، أي يقومون بتكميم أفواه الرسل، بل

ويقومون بقتل الرسل، فقتلوا زكريا، وقتلوا يحي عليهما السلام، وقتلوا كثيرًا من الأنبياء فهل من الممكن أن تتخيل أنك تعيش في زمان نبي من الأنبياء وتسمع أن سيدنا زكريا نُشر بالمنشار!.

تخيل وأنت تعيش في زمن نبي من الأنبياء وتسمع –الرواية من الإسرائيليات–:

أن ملكًا ظالمًا يريد أن يتزوج من امرأة بغيّ ولكن لا تحل له لأنها من محارمه، وطلب فتوى من النبي أن يفعل ذلك فرفض يحي عليه السلام وقال لا تحل لك، فطلبت مهرها رأس يحي عليه السلام فقطع رأسه.

عندما تسمع هذا فيمكن أن تستغرب.

وللأسف الوساوس لا تأتي فقط بصيغة أين الله وهكذا، إنما قد تأتي الوساوس بالشك في الطريق، في الشك بالدين أن هذا الدين خطأ.

تخيّل لو أنك سمعت أنّ الكعبة هُدمت _أسأل الله أن يحفظ بيته الحرام_، وأن الناس يعبثون بالحجر الأسود، هل عندك وعد في القرآن أن الله –عز وجل– يحفظ الكعبة من الهدم؟ أنت ليس لديك وعد بهذا، أنت من توهمت ذلك، بل أخبرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ آخر الزمان سيأتي رجل يهدم الكعبة، بل هُدمت الكعبة أكثر من مرة وبنيت أكثر من مرة، وأخذ الحجر الأسود وظل مسلوبًا سنوات ثم عاد، فأحيانًا أنت تتوهم على الله وعودًا هو لم يقلها، ثم تحاسب الله على هذا!، أنت تتوهم أن الله يجب عليه أن يحفظ كل مؤمن من أي بلاء!، هو لم يقل ذلك –سبحانه وتعالى–، ولكن قال الله –عز وجل–: {وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ}[محمد:٤]، وقال الله –عز وجل–: {وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ}[آل عمران:١٤٠].

فأحيانًا **من الإشكاليات التي تجعل الوساوس تدب في قلب الإنسان وشكوك في هذا الطريق أن يتوهم وعودًا معينة ثم يحاسب الله عليها**، بل أحيانًا تتدخل في إنشاء الوعد من نفسك وفي وقت الوعد، فمثلًا في إنشاء الوعد كما تتوعد أن الله سيحفظ الكعبة، وأحيانا تتدخل في وقت الوعد مثل قوله تعالى: {الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ}[الروم:١-٣] فهذا وعد من الله أنّ الروم ستنتصر على الفرس مرة أخرى، متى يا رب؟ فقال: {فِي بِضْعِ سِنِينَ} لم يُحدد البضع.

وروى أنّ أبا بكر –رضي الله عنه– قال: أنّ الروم ستنتصر في ست سنوات، فهنا تدخّل سيدنا أبو بكر في توقيت الوعد، لكن البضع هو من ثلاث سنوات إلى تسع، ومن شدة يقين أبي بكر في كلام القرآن راهن الكفار في مكة على ذلك، والكفار كانوا يحبون الفرس لأنهم مشركون مثلهم والمؤمنون كان بينهم علاقة مع الروم لأنهم على رسالة من السماء فهم أهل الكتاب، وراهن أبو بكر على هذا أن أهل الكتاب سينتصرون على الفرس، ثم مرّت ست سنوات، ولم ينتصر الروم، فبعض المسلمين بدأ يشك، ولكن هذا ليس من موعود الله لأن الله تعالى قال في بضع سنين.

أحيانًا التدخل في الوعد بتحديد أو بإنشاء يؤدي إلى شك في هذا الدين، فهنا إشكالية أنّك تزعم أنّ الله سينصر طائفة بعينها، وأنت تتوقع هذا وتصر عليه ثم تتفاجأ أنّ هذه الطائفة قد تهزم.

بعض الصحابة في غزوة أحد قالوا كيف ننهزم ومعنا النبي ونحن مؤمنون فكيف يحدث ذلك؟ فقال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا}[آل عمران:١٦٥] أي: كيف نُغلب؟ ألسنا مسلمين وهم كفار، لأن المعادلة هنا مكتملة، لكن لا فمعادلة التمكين أعقد مما تتخيل، ليس مجرد مؤمن وكافر، والمؤمن يكسب، هذه المعادلة فيها معاصي وأسباب دنيوية، وفيها نصرة الله لعباده، أو يخذلهم أو يعاقبهم فهذه معادلة معقدة وتجمع من نصوص القران والسنة، ومن الإشكاليات تبسيط هذه المعادلة.

فأحياناً النفس البشرية عندما يطول عليها البلاء والألم تحتاج إلى من يقول لها: "إياك أن تعتقد أن الله غافلًا عما يعمل الظالمون"، جاء عمل الظالمين بصيغة المضارع ليبين أنه مستمر، فمتى يكون التدخل الكامل الذي يشفي الغليل؟ {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} هل يؤخرهم ليوم تقطع فيه رؤوسهم في الدنيا أو تبقر بطونهم في الدنيا؟ لا **فلن يُشفى غليلك بالكامل إلاّ في الآخرة**، فبعض رؤوس أهل الباطل يصيبهم العذاب في الدنيا؛ كما حدث في معركة بدر مع رؤساء قريش، أما بقية رؤساء قريش فمنهم من مات ميتةً عادية قبل المعركة، ومنهم من أسلم مثل أبو سفيان وكلهم كانوا يحاربون الدين.

غالبًا القرآن المكي كان يُربي الصحابة على أنّ الجزاء الكامل في الأخرة، لا تنتظروا شيئا في الدنيا، فالصحابة تربوا على أنهم يبذلون ويبذلون، ولا ينتظرون شيئًا، بل إن الجزاء والنتيجة في الأخرة،

في سورة الحج معركة تنشأ بين الحق والباطل {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا} هل قال هزموا؟ لا ولكن {قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ}[الحج: ١٩] فالنتيجة في الآخرة.

تخيل وأنت تسمع سورة العنكبوت وهي آخر سورة نزلت في مكة بعد ١٣ سنة عذاب، تخيل وأنت تسمع {أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}[العنكبوت: ٢] بعد كل ما لاقوه من فتن فمازال هناك فتن أيضًا.

يربيك الله على عدم العجلة، تخيل وأنت تسمع {فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}[العنكبوت:١٤]، وأنت قضيت ١٣ سنة فقط في العذاب، فالصحابة تربوا على أنهم لا ينتظرون شيئًا، فقط ينتظرون الجنة التي بايعوا الله عليها، وهذا هو الجيل الذي يبقى ويكمل المسير للنهاية يرى أصدقاءه يموتون ويجوعون في مكة لكنه أكمل طريقه، وليس الجيل الذي ينتظر وينتظر ويردد كم بقي لهذا ولذاك.

قال تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} البصر الشاخص أي: لا يطرف أي: ليس قادرًا على أن يرمش عينيه أو يغلق عينيه للحظة، من شدة الفزع، فالعذاب المذكور في سورة إبراهيم يُركز على الألم والإهانة، والفزع والرعب، كما كانوا يفعلون مع المؤمنين في الدنيا.

{مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ}[ابراهيم: ٤٣] هذا وصف للمشهد في لحظات البعث، {مُهْطِعِينَ} فيها أقوال كثيرة: أشهرهم الإسراع باتجاه الشيء، أي: مشية إنسان ذليل أسير مسرع باتجاه شيءٍ يفزع منه، وقيل: أنّه يرفع رأسه إلى السماء، وقيل أنّ الإهطاع هو مد الرقبة، أو أن يجري وبصره شاخص لكن نأخذ بقول الإسراع.

{مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} أي: أنّ رؤوسهم مرفوعة إلى السماء لا يستطيع أن ينظر أحد إلى أحد، فالكل مشغول بنفسه ومنتظر ما الذي سينزل عليه، فكلمة {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} مع كلمة {أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} يدل على حالة من الفزع والرعب والإسراع في ذل واستكانة في كل الاتجاهات لا يعلم أين يذهب ، ترى الرؤساء والقادة الذين كانوا في قمة الجبروت والطغيان؛ هم الآن أذلة يجرون في كل مكان، في قمة الاستكانة ويمدون رقابهم يبحثون عن النجاة فلا يجدون.

{لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} أشبه بمعنى {تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} أي: لا يستطيعون أن يُغلقوا أعينهم؛ وهذا من شدة الفزع، يخشى إغلاق عينيه مخافة أن ينقض عليه العذاب، {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} هذا المعنى كانوا يشبهون به الجبان في حالة الجبن والفزع، أو (هواء) بمعنى أنّه أصبح مكان الفؤاد هواء، وبلغت القلوب الحناجر، فكأنّ مكانه هو الذي أصبح هواء، أو أنّ الفؤاد نفسه هو الذي أصبح، فكأن القلب في حالة من عدم الاستقرار، كما في دعاء سيدنا إبراهيم {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ}[إبراهيم:٣٧]، فتعني البحث عن الاستقرار، وهنا حالة من عدم الاستقرار تعني ليس له قرار من شدة الفزع. {أَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} توصيف لحالة من الفزع والجبن؛ إمّا أنّ القلب ترك المكان وبلغ الحناجر حقيقةً؛ فأحيانا عندما تخاف تشعر أن قلبك ينبض في رقبتك، أو أنّ هذا تشبيه للقلب الخاوي غير القلب الشجاع.

{وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ}[إبراهيم:٤٤] بمعنى :{وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا} واستمر في الإنذار، فخطاب سورة إبراهيم خطاب قوي جدًا، فتخيل أحد صناديد قريش، وهو يسمع سورة إبراهيم، ويُقال له: سوف يُفعل فيك كذا وكذا..، وإن لم تتب سيُفعل فيك كذا وكذا..، وأن الله سينصر المؤمنين، تخيل حين يتلقى هذه السورة.

أو أحد المستضعفين الذي شارف على اليأس، عندما يتلقى هذه السورة، فهي سورة تبث الأمل للذين {اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ}[آل عمران:١٧٢]، فسور القرآن تجعل الإنسان يستجيب حتى من بعد الألم والقرح، ثم يُكمل المسير.

{فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ} دعوة الإخراج من الظلمات إلى النور التي أنتم رفضتموها وصددتم عنها، وحرضتم الناس بالصد عنها، ووضعتم أيديكم على أفواه الرسل للصد عنها، آلآن تقولون: نُجب دعوتك ونتبع الرسل؟ أليس هؤلاء الرسل هم من أنتم آذيتموهم؟ وأردتم أن تطردوهم من قريتكم؟ وقلتم سنفعل وسنفعل..

{رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ}[إبراهيم:٤٤]، فدائمًا مع شدة الصراع تجد الكل يُقسم، الكل يُظهر أنّه في قمة اليقين من أفعاله، لذلك هم كانوا في قمة اليقين عندما قال المؤمنون:{وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا}[إبراهيم:١٢] فقالوا لهم: {لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا}، {فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ}[إبراهيم: ١٣]

فهنا الآيات كلها جاءت بلام القسم، فأحياناً أثناء شدة الصراع تجد أنّ أهل الباطل يُقسمون أنهم على الحق، وأهل الحق يُقسمون أنهم على الحق، أنت أحيانا عندما تجد الذي أمامك في شك أو اضطراب تحتاج أن تقسم لهم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما جاء خباب وقال: "ألا تدعو لنا؟ ألا تستنصر لنا؟" فقال: (والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه.... ولكنكم تستعجلون)[1] ، أقسم لهم، فهذا القسم يقع في القلب موقعًا، وكذلك كان يفعل قادة المشركين مع أتباعهم يقسمون لهم أننا سننتصر.

{مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ} جمهور المفسرين على أن المعنى: لن نُبعث، فالمشركين كانوا يقسمون أنهم لن يبعثوا، وهذا القسم موجود في كثير من القرآن، وقد يكون المعنى أنّكم مالكم من زوال أي: سيظلون في هذا التمكين والمكان، وذُكرت كلمة الظنون ثلاث مرات في القرآن: {مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا}[الكهف: ٣٥] وصل لمرحلة أنه ظن أن الجنة لن تذهب منه وأن الملك لن يذهب منه، {وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ}[الحشر:٢]، {وظن أهلها أنهم قادرون عليها} أي: أنهم وصلوا لمرحلة أنهم في قمة التمكين ولن يحدث لحالهم تغيير أبدًا.

ولم تكتفوا بالقسم ما لكم من زوال لكن كنتم في مكان السابقين ،كنتم تمرون على أماكن المهلكين

{وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ}[إبراهيم:٤٥] أي: ورأيتم بأعينكم ،وتبين لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم الأمثال، فأنتم رأيتم بأعينكم وجاءكم الرسول يذكركم ، ولكنكم: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ}[إبراهيم:٤٦] أي: المكر الذي أضلّ كثيرًا من الناس، كما في سورة نوح {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}[نوح: ٢٢]، {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ}[إبراهيم:٣٦] .

[1] [عن خباب بن الأرت:] أتينا رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وَهوَ متوسِّدٌ بُردةً في ظلِّ الكعبةِ فشَكَونا إليهِ فقُلنا ألا تَستنصِرُ لَنا ألا تدعو اللَّهَ لَنا فجلَسَ مُحمرًّا وجْهُهُ فقالَ قد كانَ مَن قبلَكُم يؤخذُ الرَّجلُ فيُحفَرُ لَه في الأرضِ ثمَّ يؤتى بالمنشارِ فيُجعَلُ على رأسِهِ فيُجعَلُ فرقتينِ ما يصرِفُهُ ذلِكَ عن دينِهِ ويُمشَّطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ عظمِهِ من لحمٍ وعصَبٍ ما يصرفُهُ ذلِكَ عن دينِهِ واللَّهِ ليُتمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمرَ حتَّى يسيرَ الرَّاكبُ ما بينَ صنعاءَ وحَضرموتَ ما يخافُ إلَّا اللَّهَ تعالى والذِّئبَ على غنمِهِ ولَكِنَّكم تَعجلونَ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح أبي داود ٢٦٤٩ • صحيح • أخرجه البخاري (٣٦١٢)، وأبو داود (٢٦٤٩) واللفظ له

لكن هؤلاء القادة الظلمة المجرمون ظلوا يمكرون بأهل الدين، {وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ} أي: أن الله -عز وجل- يعلم هذا المكر، ويحيط به ويحاسبهم عليه، فدائمًا آيات سورة إبراهيم تُذكرك أنّ الله ليس بغافل عما يحدث.

{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[إبراهيم:٤٦]

اللام في قوله تعالى: {لِتَزُولَ} الأولى مكسورة، والثانية مفتوحة، وعندما تأتي (كان) ويأتي الفعل بعدها منصوبًا بهذه اللام؛ يكون الحرف الذي قبل (كان) حرف نفي، فتكون (إن) بمعنى (ما) فأصل الكلام: "وما كان مكرهم لتزول منه الجبال" ، اللام هنا تسمى: (لام الجحود أو النفي) وهي من أعلى وسائل النفي، كما أنك تقول لأحد أنت أكلت من غيري فتجيبه (ما كنتُ لآكل من غيرك) فهذا أعلى أنواع النفي.

ربنا يريد أن يوضح لنا صورة في القرآن الكريم قد فهمناها بطريقة خاطئة،

فيقول -سبحانه وتعالى- {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ}[الأنفال:٣٣]

{مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}[آل عمران:١٧٩]

فيكون المعنى [وما كان هذا المكر ليؤثر في الجبال] والجبال هم الصحابة، هم رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- هم الشرائع التي جاء بها، الرسالة ليخبر الله تعالى أن المكر عظيم وبالرغم من عظم هذا المكر لن يؤثر في هذه الجبال لن يؤثر بشريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- لن يؤثر في الوحي لن يؤثر في النور الذي جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا المعنى بقراءة حفص.

أما المعنى الذي كنا نفهمه فهو في قراءة ثانية، قراءة الإمام الكسائي {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ **لَتزولُ** مِنْهُ الْجِبَالُ} اللام الأولى مفتوحة، واللام الثانية مضمومة، و(إن) هنا بمعنى (إن المؤكدة، أو المخففة من الثقيلة) وليست بمعنى ما، واللام هنا هي اللام الفارقة التي تأتي مع إن المؤكدة، أي: وإن مكرهم لشديد لدرجة أنّ الجبال قد تزول منه.

فهنا توجد قراءتان؛ الأولى: تدل على عظم المكر وثبات الصحابة، والثانية: تدل على عظم المكر الذي قد يذهب بالجبال؛ لكن لا يذهب بالصحابة، فالقراءة الأولى قراءة حفص؛ تُشبه الصحابة بالجبال، والثانية -قراءة الكسائي- تقول: أنّ الصحابة أثبت من الجبال؛ فكأنّ الجبال تتأثر بمكرهم؛ لكن

الصحابة لا يتأثرون، بمعنى أن :الجبال قد تتزعزع؛ لكن الصحابة لن يتزعزعوا ، أو وإنّ مكرهم لقارب أن تزول منه الجبال.

إذًا هنا الجبال في الحالتين ليس مقصود منها التشبيه، وبعضهم قال أن المقصد على قراءة الكسائي {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لَتزولُ مِنْهُ الْجِبَالُ} أي المكر يذهب بالجبال كما قال -سبحانه وتعالى- عن النصارى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا}[مريم: ٩٠] ففسروا هذه الآية بها ،فقالوا أن هذه الكلمة تكاد تؤثر في ثبات الجبال غضبًا لله -سبحانه وتعالى- ، أن الجبال تكاد تغضب من هذه الكلمة.

إذًا الجبال إما بمعنى؟؟

- الرسول- صلى الله عليه وسلم- والصحابة
- أو مثل لثبات الصحابة وأن الصحابة أثبت من الجبال
- أو أن الجبال حقيقة تكاد تخر بسبب كلام الكفر. هذه الثلاث أقوال.

توجد قصة أخرى طويلة ذكرها الإمام الطبري وغيره مأخوذة من الإسرائيليات عن النمروذ وأنه حاول أن يخدع الناس فأحضر نسورًا يطيرها في الهواء ، لكن أسانيدها في الغالب لا تصح فلن نذكرها .

السورة تأتيك بالثبات ،فالآية {وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} تخوفك ، ولكن الآية التي تليها {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ}[إبراهيم:٤٧] لا تعتقد أنه بالرغم أن المكر شديد أن الله مخلف الوعد.

{فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} هنا قدّم الله وعده على الرسل، فلم يقل [فلا تحسبن الله مخلف الرسل وعده]، فالله لا يخلف وعده مطلقًا مع أي أحد؛ وأيضًا مع الرسل، {فَلَا تَحْسَبَنَّ} وبصيغة التأكيد لأن النفس في هذا الوقت يطول عليها الظلم والبلاء ولا تجد بارقة أمل.

{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا..}[التوبة:١١١]

فالله لن يخلف وعده، وهنا تأتي صيغة الاطمئنان {إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}[إبراهيم:٤٧]، أنت مطمئن بالله.

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ}[الحج:١١]

الذي يطمئن بالخير يقع على وجهه حينما تأتي الفتنة، وكذلك الذي يطمئن بالسبب يقع على وجهه بينما الذي يطمئن بالله يظل قائما لأنه مطمئن بالله من البداية وليس مطمئن بأسباب تذهب وتأتي.

النبي أخذ بكل أسباب الهجرة، وهو في الغار وجد المشركين بجواره، وأبو بكر يقول "يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا"، النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يفقد التوكل فقال: (اسكت أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[٢] ، لأن الرسول لم يكن معتمدًا على هذه الأسباب أصلًا، هو متوكل على الله وأخذ بها فقط فلم ينشغل بالأسباب.

{عَزِيزٌ}: أي لا يُغالب، ينصر أولياءه، {ذُو انتِقَامٍ} من أعدائه، وكلمة ذو انتقام كلمة تشفي الصدر؛ لأن المؤمن يريد أن ينتقم مما حدث له في هذه الفترة؛ الإنسان قد يعفو لكن لا تطالب الناس بهذا، هو يريد أن يأخذ حقه في الآخرة، هو حر، فمن نعيم الجنة أن يرى هؤلاء المظلومون الظالمين الذين كانوا يعذبونهم وهم يُعذبون في النار؛ فتفتح لهم كوات وهم في الجنة ينظرون منها إلى النار إلى من كان يعذبهم، فهذا من كمال النعيم.

لكن متى يحدث هذا؟ {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[ابراهيم: ٤٨]

اختلف المفسرون في (التبديل) هل هو في الوصف، أم في الحقيقة؟ أغلب المفسرين قالوا: أنّه تبديل حقيقي، فالأرض تكون مختلفةٌ تمامًا؛ بيضاء نقية كما ورد في الأحاديث: تبدل الأرض، وتبدل السماوات، وتبدل الموازين التي كانت موجودة في الدنيا؛ {خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ}[الواقعة: ٣] فمن كان مرفوعًا في الدنيا من الممكن أن يأتي مخفوضًا يوم القيامة، ومن كان فقيرًا من الممكن أن يكون غنيًا يوم القيامة من أغنياء المحشر.

[٢] [عن أبي بكر الصديق:] كُنْتُ مع النبيِّ ﷺ في الغارِ فَرَأَيْتُ آثارَ المُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، لو أنَّ أحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنا، قالَ: ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ اللَّهُ ثالِثُهُما.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٦٦٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٦٦٣)، ومسلم (٢٣٨١) •

{وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} الواحد الأحد، فلا يملك أحد أن يتكلم بكلمة هناك؛ هو الواحد الأحد فليس هناك أنداد، ولا أئمة، ولا قادة، فالله هو واحد لأنّه قهّار بصيغة المبالغة، لأنّه قهر كل من ينازعه، والمنازعون الذين ادعوا أنهم شركاء؛ قهرهم الله -سبحانه وتعالى-.

آخر مشهد للمجرمين يوم المحشر الذين عذبوا أهل الحق قبل أن يسقطوا في النار: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ}[إبراهيم:٤٩-٥٠].

ما معنى مقرنين؟ [القرن] أي: أن الحبل يشد شيئين معًا، والأصفاد أي: الأغلال، فقيل: إمّا أنّ الأيدي مقرونة مع الأعناق والأرجل، أي: مربوط مع يديه وقدميه والأغلال من حوله، أو أن مقرنين أي: كل اثنان مربوطان معًا في حبل، من الاثنان؟ وهما إمام من أئمة المشركين إما معه شيطانه الذي كان يغويه، أو اثنين من أئمة الباطل معًا، لذا قال تعالى:{احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ}[الصافات:٢٢] الأزواج هنا لا تعني زوجته ولكن قرينه المساوي له بالإجرام أو الذي كان يخطط معه، تخيل المشهد أنك تجد اثنين مربوطين بالأغلال والأصفاد في قمة الذل، تشخص أبصارهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء، مهطعين مقنعي رؤوسهم، يقفون اثنين اثنين، فجأة تجد الملائكة تدهنهم وتطليهم باللون الأسود، وهم عراة، ومكان الملابس سيدهنون القطران الأسود -الزفت-؛ كانت العرب أحيانًا تأتي بهذا القطران وهو ذو رائحة كريهة منتنة يدهنون به الإبل الجربى، وهو سريع الاشتعال لونه أسود خبيث؛ ويحرق الجلد، ويأكل الجلد، فتخيل أن ملابسه ستتحول إلى قطران، وأهل أرض المحشر يريدون أن يتخلصوا منهم بسبب رائحتهم الكريهة.

وفجأة وهم واقفون: {وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ} يبدأ كل اثنين يُلقيا في النار، فيسقط بوجهه؛ والنار تغطي الوجه، لأن يده مربوطة، فلا يستطيع أن يدافع عن وجهه، كما قال تعالى في سورة الزمر: {فَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}[الزمر:٢٤] الطبيعي أنه يتقي العذاب بيديه ولكن لأن يده مربوطة فيتقي العذاب بوجهه.

{وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ} آخر مشهد يراه أهل الإيمان لهؤلاء قبل أن يدخلوا في النار.

تخيل كيف يشعر الذي في الدنيا من هؤلاء القادة المجرمين عندما يسمع هذه الآيات، يشعر أن الذي يتكلم بهذا الكلام ليس من البشر، قوة فوق قوة البشر، في قمة الثقة واليقين {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ}، حين يسمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول هذا الكلام يعلم أنه ليس من كلام النبي

-صلى الله عليه وسلم-، هذا كلام ليس في طاقة البشر، في وقت الاستضعاف والشدة والأذى، ويأتي بكل هذه الثقة واليقين، من أين؟ وكيف أنه يثبت ويؤثر ويبقى رغم الضعف، فقوة كلام القرآن من علامات صدق النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلامات صدق الرسالة.

في [سورة طه:٤٧-٤٩] {إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ} الشخص الذي كان خائفًا وهرب من فرعون لأنه قتل لهم شخصًا، ها هو يعود بقمة اليقين يقول لفرعون جئتك من عند سيدك، {قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ} وألا تخاف فلن نفعل لك شيئًا {وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ}، فإذا لم تستجب {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ} ستُقطع، تخيل حين يقول هذا الكلام أمام فرعون والجنود نفس الشخص الذي كان هاربًا منهم، فرد فرعون {فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ}، **فقوة الكلام الصادق يصل ويؤثر فيمن أمامه.**

وقوة سيدنا موسى في سورة طه تجدها تؤثر على من أمامه، كما حدث لما جاء السحرة وكانوا متجهزين وفرحين فقال لهم موسى {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ}[طه: ٦١] فماذا حدث؟ {فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ}[طه: ٦٢] تعجبوا من ثقته بنفسه وأثر فيهم فجعلهم يرجعوا ويتنازعوا لكن رجعوا يثبتوا أنفسهم وعادوا مرة أخرى.

وفي النهاية: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ} فكل أعمال فُعلت في الدنيا؛ سيجزي الله بها من خير أو شر، لا يظلم الله الناس مثقال ذرة، {إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[ابراهيم: ٥١] أي: إنّ الله يوم القيامة سيحاسب كل هؤلاء الناس؛ أو قد يعجّل لبعض الناس بالعذاب، وإن حساب الله سريع ليس كحساب البشر.

{هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[إبراهيم: ٥٢] هذه المعاني التي جاءت في السورة بلاغ للناس، وأيضًا من معاني {بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ} يَبْلُغوا به، أي هذه المعاني نستطيع أن نبلغ بها مرادنا، أو أنّ {هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ} أي هذه رسالة من الله -عز وجل- للناس، {وَلِيُنذَرُوا بِهِ} ففي نهاية الآية تردك للدنيا، وهذه من عادة القرآن يطّوف بك في العذاب والجزاء والجنة والنار ويوم القيامة ثم يعيدك إلى الدنيا لتأخذ القرار الصحيح في التوبة.

تخيل هذه السورة تتلى على أحد صناديد قريش وفي النهاية يقال له أنت الآن رجعت إلى الدنيا بعد هذه الرحلة العظيمة، فماذا ستفعل؟ {هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ} قد بلغتك هذه الآيات، {وَلِيُنذَرُوا بِهِ} ولتعلم أنه إله واحد –سبحانه وتعالى– عزيز؛ لا يغالب، {وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} لكن الذي سينتفع في النهاية الذي سيتفكر في هذا الكلام {وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} أولي العقول والنهى الذين يتدبرون في هذه الآيات هم الذين سينتفعون بها.

وتختم هذه السورة العظيمة بقمة الثبات واليقين؛ **أن وعد الله آت مهما تأخر، ومهما طال الظلم، ومهما طال الظلام، فلابد من طلوع الفجر..**

أسأل الله أن يستعملنا ولا يستبدلنا . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك